

# حدث ذات جدار» لسناء الشعلان: فصل آخر من أدب الشتات الفلسطيني

بقلم: رياض خليف / تونس

تحاول سناء شعلان في هذه المجموعة من القصص القصيرة، كتابة فصل آخر من سردية المأساة الفلسطينية، سائرة في درب أميل حبيبي وغسان كنفاني وغيرهما ممن كتبوا القصة والرواية، موثقين للحظات المفصلية في القضية الفلسطينية، موسعين دائرة ما يمكن أن نسميه أدب الشتات الفلسطيني، الذي لا يخلو من حكايات الضياع والتهجير والاعتراب، ومن لعبة الحدود والبوابات (لعلنا لا نخفي في هذا المستوى إننا نتجه من أدب الشتات الفلسطيني إلى أدب الشتات العرب، فهذه الموجات من التقتيل والتهجير والعنف، أنتجت شتاتها وستنتج أديها). هذا الأدب راج شعره ولكن سرده وحكيه لم يجد الصدى، وهو يوثق محطات كبيرة وحاسمة من مأساة الشعب الفلسطيني. وهو سرد يمتزج فيه الحبر بالدمع، والتخييل الفني بالواقع المرجعي، فلا تكاد الحكاية تتأى كثيرا عما وقع ويقع. فهو سرد موجع يتبارى في رسم اللوحة الحزينة وينتصر لجماليات الألم والمرارة، محاولا لعب أدوار عديدة منها التوثيق والشهادة على ما جرى والاحتجاج على العدو. ولعل سناء شعلان في هذه المجموعة القصصية تضيف إلى هذا الأدب عملا آخر ومحاولة أخرى لرسم المعاناة الفلسطينية، تتعلق هذه المرة بجدار الفصل العنصري الذي أنشئ في الضفة الغربية في بداية 2002 ردا على انتفاضة الأقصى، ومنعا للفلسطينيين من دخول المستوطنات، فكلّ العتبات النصّية والحكايات الواردة في الكتاب تصب في خانة فضح هذا الجدار والاحتجاج عليه، وإبراز ما سببه للفلسطينيين من متاعب.

الجدار والعتبات

لا ينتظر القارئ كثيرا لاكتشاف هذا العمل، فالعبارات النصية صارخة وملحة وتمارس دورها «الميتا سردي» أو الواصف بالأضواء الكاشفة، فهي تحيل بصراحة إلى موضوع القصص وغايتها ورسالتها. وتكشف عن الاهتمام بالجدار العازل، وتلمح إلى تدوين يوميات الشعب الفلسطيني، فلم تخل من الإشارة إلى هذا الجدار، فهو في العنوان الرئيسي، ولعل ورود العنوان على هذه الشاكلة يوحي بنزعة القص المرجعي والتسجيلي، ففعل حدث يبرز نزعة الكاتبة إلى تصديق حكيها وإبراز وقوع الأحداث فعلا. ويحضر الجدار في عناوين القصص (قريبا من الجدار/ وبكى الجدار/بعيدا عن الجدار) وفي الإهداء (إلى من لا تهزمهم الأسوار مهما علت وتجبرت) وفي التصدير (من واجب الجدار الفاصل أن يخجل من نفسه، وأن يبكي ولو سرا، احتجاجا على طغيانه واشمئزازه من وجوده) وهو في النص الافتتاحي الذي حمل عنوان إضاءة على ظلام والذي تناول تاريخ أحداث هذا الجدار والموقف الفلسطيني منه. فالعبارات تؤكد على قضية هذه القصص وتقربنا من رسالتها الاحتجاجية، كما تحيلنا إلى الطابع المرجعي لهذا العمل، فكيف كتبت سناء الشعلان يوميات صراع الشعب الفلسطيني مع الجدار العازل؟

### حكايات الجدار

تبدو قصص المجموعة محافظة على الوفاء للمرجعي، ناقلة فضاءات ومشاهد مألوفة، وعلى صلة بالواقع الفلسطيني. ويمكن ان نكتشف بعض الثنائيات التي تتكرر في هذه القصص، ومنها ثنائية تتصل بالشخصيات، فالقصص تجمع بين شخصيات عالقة، عزلها الجدار وتركها تعيش معزولة ومفصولة عن أهلها في المناطق المحتلة، حيث المستوطنات وأخرى في الضفة الغربية والمناطق الفلسطينية الخاضعة للحكم الذاتي.

من هذه الثنائيات الفتى نور الذي ظلت جدته وابنة عمه عالقتين وراء الجدار، وفشل في الوصول لهما، رغم محاولاته، أو الأم المريضة في قصة أمومة التي منعت من العودة إلى أسرتها وابنها، ولم تعد إلا جثة هامدة: «في المساء كانت قد

عبرت الجدار الفاصل، رغم أنوف الجنود الصهاينة المدجّجين بالسلاح والخوف والحذر، ولكنها لم تكن تسعى حية عندما عبرته بل كانت جثة هادمة مخرقة بالرصاص... وكف يدها متخشبة على ثديها الأيمن الذي كانت تحلم بان ترضع ابنها منه ولو مرة واحدة في حياتها المهدورة على بوابة الجدار العازل». على هذا النحو من بناء الشخصيات سارت مجمل القصص مصورة الكثير من المرارة الإنسانية، راسمة وجع الشخصيات الفلسطينية ملمحة إلى تحديهم لهذا الجدار، مبرزة مغامرة العبور والتحدي، وهي سمة أخرى من سمات الشخصيات التي لم تستسلم لوضعها، وظلت تقاوم ولعل هذا يحيلنا إلى ثنائية أخرى، وهي اليأس والأمل، فهذه الشخصيات المعزولة رغم ما يصيبها من ألم فإنها تصنع أملاها وتحاول، فنور على سبيل المثال حاول صنع طائرة ورقية كي تراها ابنة عمه. تغلب على هذه القصص نهايات حزينة ومؤلمة فمثلما انتهت الأم في قصة أمومة انتهى الطفلان الصغيران في قصة «وبكى الجدار» حيث مات الطفلان وهما يحاولان اللقاء، وبكى الجدار بحرقة وحزن، وحصل اللقاء رغما عنه ولكن كان لقاء جثث قتلها البرد.

هذه الكتابة السردية تحاول الاقتراب من تفاصيل ويوميات الإنسان الفلسطيني، وهي ترسم جانبا من سردية الشعب الفلسطيني الذي عانى الويلات. وهي تجمع بين الشهادة التوثيقية لما جرى والاحتجاج على هذا الجدار. ولعل سناء الشعلان تواصل في هذه المجموعة كتابتها للجرح الفلسطيني وهو ما خاضت فيه في أعمال سابقة.